صورة الخطاب الروائي بين مرايا التاريخ وانعكاسات المستقبل (*)

د. منتهى طه الحراحشة
أستاذ مشارك في الأدب والنقد الحديث والمعاصر
قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب –
جامعة آل البيت المفرق- الأردن

ملخص

يسعى هذا البحث إلى تناول صورة الخطاب الروائي بين مرايا التاريخ وانعكاسات المستقبل في ضوء المنهج التاريخي والإفادة من معطيات التاريخانية الجديدة ؛ لكي يبيّن تجليات الخطاب الروائي والتاريخي، وصورة الخطاب الروائي بين الزمن الواقعي والتخيلي، ويكشف عن مرايا التاريخ، وأزمنة الرواية المنكسرة، والخطاب الروائي بين الواقع والتخييل، ويوضِّح الكتابة التاريخية والذات الروائية العربية.

وخلص البحث في خاتمته إلى أنَّ الخطاب الروائي بكل تجلياته إنَّما هو صورة للتاريخ الإنساني بتمظهراته المتغيرة عبر الزمن.

الكلمات المفتاحية :(الخطاب الروائي، التاريخ، الصورة، الزمن الواقعي، نظرية الانعكاس).

(*) **مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٨٠) العدد (٢) يناير ٢٠٢٠**

Abstract

The Image of the Novelist Discoures Between the Mirrors of History and the Implications of the Future.

This research seeks to address the image of the novelist discourse between the mirrors of history and the implications of the future in the light of the historical approach, and to benfit from new historical data , to show the manifestations of the novelist and historical discourse, and the image of the narrative discourse between real and imaginary time, and reveal the mirrors of history and times of the broken novel, and the narrative discourse between reality and fantasy, and explains the historical writing and Arabic self-narrative.

The research concluded that the novelist discourse in all its manifestations is an image of human history with its changing manifestations over time.

Key words: (narrative discourse, history, image, real time, reflection theory).

المقدمة

إنَّ الحديث عن الرواية والتاريخ يشكل مكمن تقاطع بين حدود فاصلة وجامعة في الوقت ذاته، لكلّ من التخيلي والموضوعي، وفق علاقة معقدة تغوص في أعماق الخيال؛ لتطفو صورتها على واقع إنساني يعكس تجليات المادة الإبداعية من خلال روح كتابة التاريخ، وما تمثّله هذه الكتابة من مساءلة فنية، لها أثر في إضاءة العديد من مرايا الزمن عبر فلسفة الخطاب الروائي الممتزج بالتخييل، والمترسب عبر التجارب الإنسانية داخل إطار ذاتي واجتماعي وثقافي، تحكمه المسافة الفاصلة بين حركية الإبداع الروائي وسكونية تأمله عبر التاريخ، وما يعج به التاريخ من ثقل مفرغ تارة، وممتلئ تارة أخرى بسطور الصراع المخطوطة على شكل نسيج يتصادم فيه الاعتقاد بالواقع؛ أي

بين واقع المقدس التاريخي والإبداع الروائي، وما يشغلهما من مساحات الخيال، وفق تعالق معقد متداخل ومتجانس عبر الزمن.

إنَّ ارتباط الخطاب الروائي بعامل الزمن، يجعل العلاقة بين الرواية والتاريخ علاقة جديرة في البحث عن التجليات السردية في أبعد تصوراتها الفكرية والثقافية والاجتماعية والفنية القائمة على التصور الأدبي، باعتباره المصدر المهيمن على القراءة وكذا الكتابة الأدبية؛ وهذا ما يقودنا إلى معطى أساس ينبني على التلازمية الفكرية بين القدرة الإبداعية للروائي في تفكيك معطيات التاريخ الموضوعية، وإعادة تركيبها برؤية فنية تمتح تارة من الواقع، وتتغمس تارة أخرى في الخيال، بهدف خلق نوع من الموازنة التأويلية بين كيفية بناء العلاقة بين النص الروائي والنص التاريخي، وفق رؤية تحيينية لمعطيات الواقع وتجربة المبدع الروائي. فهل جاءت الرواية مِرآة الانعكاس التي تعكس صورة الماضي في الحاضر؛ أي التاريخي بالروائي؟ وهل الرواية إعادة لكتابة التاريخ وصياغته بحلة جديدة ، أم أنَّ الخطاب الروائي قادر على ابتكار عالمه الخاص خارج خطية الزمن؟

كما يثير البحث أسئلة عديدة، لعل من أهمها: ما نوع العلاقة بين الرواية والتاريخ؟ وهل يوجد تعالق معقد متداخل ومتجانس بينهما عبر الزمن، وما نوعه؟ وهل نُسجت صورة الخطاب الروائي بين الزمن الواقعي والتخييل، وبيَّنت مرايا التاريخ وأزمنة الرواية المنكسرة ؟ وكيف تلوَّن الخطاب الروائي بين الواقع والتخييل، وما أثر التاريخ على الذات الروائية العربية؟ وهل خلخلت الرواية عمق الكتابة التاريخية لإعادة كتابة التاريخ بشكل مغاير للتاريخ الرسمي؟

كُلّ هذه الأسئلة وغيرها فرضت تناول البحث لصورة الخطاب بين مرايا التاريخ وانعكاسات المستقبل؛ لفهم الثقل التاريخي المتواري داخل ثنايا العمق الروائي للإلمام بخيوطه السردية أثناء بسط الأفكار ومحاورتها؛ هذا معناه أننا

لا نتحدث عن الرواية التاريخية بقدر ما نتحدث عن علم التاريخ في صنع الرواية عن طريق التعالق الحاصل بين الأدب وعلم التاريخ داخل حركية الإنسان في صلب الزمن، وما يتخللها من ممكنات معرفية يتجاذبها التخيلي بالواقعي.

قضايا البحث

إنَّ المتمعن في قضايا الخطاب الروائي يدرك بحق ذلك الارتباط بين التاريخ والرواية عبر آليات الخطاب الإبداعي في أبعد صوره الكونية والخيالية المحققة للممكنات المعرفية، وما يصاحبها من مفاهيم تعكس لب الموضوع وطرق سبر أغواره الأدبية والثقافية، وفق تجليات الخطاب الروائي الممتد عبر التاريخ بتفرعاته الذاتية والجماعية في معالجة القضايا الكونية الماكثة في ذاكرة الروائي والتاريخي والحكواتي..، لتصبح بذلك الرواية، القضية المحورية في كنه التاريخ؛ لأنها المادة المُشَكلة لكينونته، والمرجع الأساس لسبر روافده عبر مرآة الخطاب والتخاطب مع ممكنات الحوار وانعكاساته الفنية والثقافية التي تنشدها الرواية في طياتها الإبداعية. كل هذا يجعلنا نقف عند الظاهر والخفي في الكتابة الروائية، وما يجمع بينهما من تمثلات لم يبح بها التاريخ على لسان الرواية، وإنما أرجأها على شكل تصورات تخييلية قابلة للتأويل عبر حركية الواقع داخل خطية زمن الخطاب الروائي.

مشكلة البحث

إنَّ قضايا البحث استدعت منا الوقوف على استنهاض مقومات الوعي التاريخي؛ لاستنطاق الخطاب الروائي بأشكاله ورمزياته الأنثروبولوجية، الداعية لعمق إشكالي ينبني على مِرآة الانعكاس التي تعكس صورة الماضي في الحاضر أي التاريخي بالروائي من خلال أطروحة مفادها كيفية إعادة الرواية

لكتابة التاريخ بقالب روائي، واعتبار الرواية من انتاج التاريخ، وأنَّ الخطاب الروائي قادر على ابتكار عالمه الخاص خارج خطية الزمن.

المنهج المعتمد

سنعتمد في هذ البحث، المنهج التاريخي؛ لقوته في عرض الأحداث الأدبية بشكل دقيق وموسع يسعفنا لتشكيل صورة دياكرونية تعكس مرايا التغير والتحول الذي طرأ على بنية الخطاب الروائي عبر الزمن، ولعل ذلك راجع لخلق جماليات التذوق الفني التي يحدثها التاريخ في قلب الرواية، بجميع مجرياتها وأحداثها التي تنبض من عمق الحياة الاجتماعية عبر سيرورة الزمن النصي والواقعي في سرد الأحداث التاريخي، بحسب معطيات اغتراف الحاجيات الأدبية من صلب التاريخ؛ هذا ما يدفعنا للقول، إنَّ المنهج التاريخي هو مرآة تعكس صورة الإنسان في شخص الخطاب الروائي، بحمولاته الروحية والمادية وبانكساراته وبطولاته، لهذا فإن الخطية التاريخية هي انعكاس لسطور الخطاب الروائي في استكناه فلسفة الفكر الإنساني المتخفية عبر حقول معرفية لا يمكن قراءة معطياتها إلا بمنظار التاريخ. إضافة إلى الإفادة من معطيات التاريخانية الجديدة، لدراسة الخطاب الروائي وفهمه ضمن معطيات التاريخ وسياقاته؛ والذي يسعى للكشف عن الأنساق الثقافية المتوارية في ثنايا النصوص، لنقد الواقع المهيمن بكافة تناقضاته.

الدراسات السابقة

يهدف هذا البحث إلى دراسة صورة الخطاب الروائي بين مرايا التاريخ وانعكاسات المستقبل؛ ويتحدث عن تجلّي علم التاريخ في صنع الرواية ، وهذا طرح جديد لقراءة الخطاب وفق روية جديدة تدفعنا لطرح تصور لفرضية مفادها: (أنَّ الخطاب الروائي إنَّما هو صورة للتاريخ الإنساني بتمظهراته

المتغيرة عبر الزمن). لذا فإنَّ موضوع البحث جديد في طرحه، لم يدرس من قبل الدارسين والنقَّاد. لكن ثمَّة دراسات موازية تناولت الرواية والتاريخ، لعل من أهمها:

١- " الرواية التاريخية " (لوكاش، ١٩٣٧)، وهو كتاب له أهمية كبيرة في الدراسات الأدبية، إذ بيَّن أهمية التاريخ في تشكيل الرواية التاريخية، وعلاقة الرواية التفاعلية بالتاريخ ، وتفاعل التاريخ مع الأنواع الأدبية، ويرى أنّهَ لا بدَّ من أي عمل فني يؤلفه الكاتب، أن يستقي عناصره من التاريخ دون أن يكون له علاقة به. كما أنَّ بداية ظهور الرواية التاريخية في بداية القرن التاسع عشر مع زمن انتهاء حكم نابليون، يعود إلى أسباب تاريخية محددة، هي التي أدت إلى انتاج الرواية التاريخية. وللروائي دور في إعادة صياغة التاريخ وتصحيح ما أسقطه المؤرخون، وتدوين ما تمَّ تهميشه. لذا فهو يرى أنَّ ثمة علاقة بين التاريخ الروائي والتاريخ.

٢- الرواية والتاريخ: طريقتان في كتابة في روائيًا،(القاضي، ١٩٩٨) ، إذ يرى بأن ثمَّة علاقة بين الرواية والتاريخ، وأنَّ الرواية لا تكون تاريخية إلا إذا حملت من زمن كتابتها مشاغله الأساسية، وقضاياه الراهنة.

٣- "الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية" (دراج، ٢٠٠٢)، تناولا الرواية العربية وكيفية تشكيلها عربيًا، مسلط عدسة الكتاب على أمرين أثنين: الأول: أسس تناول المؤرخين للأحداث والوقائع في الدول العربية، والثاني: كيف أعاد الروائيين تشكيل هذا التاريخ في رواياتهم،

من منطلق أنَّ الرواية فن المقموعين، والتاريخ تنتجه الطبقة المنتصرة، أو القوية.

٤- الرواية التاريخية وروايات نجيب محفوظ، (عصفور، ٢٠٠٥)، يبيّن فيها أنَّ الروائي نجيب محفوظ قد اتخذ من التاريخ مادة لتشكيل الثلاثية التاريخية، مع فارق زمني تاريخي واسع بينهما؛ ليجسد رؤيته لمصر القديمة، وكيف عبَّرت هذه الرواية في أحد جوانبها عن التيار الوطني الذي كان يهدف إلي "إحياء الماضي، والبحث فيه عن إشارات ترسم طريق المستقبل.

٥- الرواية التاريخية أداة لاصطياد التفاصيل المنسيّة، (عودة، ٢٠١٧) ، هي مقالة ترتكز على عدة آراء بعضها يبين علاقة الرواية بتاريخ، وبعضها يفصل بين الرواية التاريخية والتاريخ، فيوضح أنّ الرواية لا تسرد التاريخ مباشرة، بل ينتقي الكاتب ويختار من التاريخ ما يتصوره ويتفاعل مع رؤيته، وأنَّ التاريخ يقدم مادة جاهزة للرواية. والروائي يستمد مادته من التاريخ كما فعل الروائي نجيب محفوظ ورضوى عاشور وغيرهم.

٦- بحري، محمد الأمين، (٢٠١٧)، ويرى في مقالته أنَّ التاريخ يتداخل مع الرواية، وأنَّ البنى السردية مستلة من التاريخ والواقع، والرواية بدون تاريخ لن تكون شيئاً. غير أنَّ التاريخ في الرواية يبقى موضوعًا محايثًا لسردها على الدوام، ويتحدث بشكل مختصر عن الرواية التاريخية بين

رواية الشخصية ورواية الحدث العربية ويتخذ من الرواية الشخصية التاريخية الجزائرية نموذجًا لمقالته.

تجليات الخطاب الروائي والتاريخي

تُعد العلاقة بين الخطاب الروائي والخطاب التاريخي علاقة متوالدة متناسلة، فالخطاب الروائي يولد من رحم الخطاب التاريخي بصورة جديدة تتشكل عبر حركة السرد، فالكاتب ينتقي ويختار بوعي من التاريخ بما يتوافق مع رؤيته للواقع المعيش، فيقدم صور سردية عميقة الصلة بالواقع في إطاره التاريخي والاجتماعي ، لذا يفرض الحديث عن تجليات الخطاب الروائي، التعريف مصطلحات عديدة ذات صلة بالخطاب الروائي والتاريخي، من مثل:

أولاً- مفهوم الخطاب

شغل مفهوم الخطاب اهتمامات الدارسين والباحثين الغربيين والعرب، في مختلف التخصصات، لما يتميز به من حمولة دلالية لها أثر في البعد التواصلي، ولعل ارتسام هذا المفهوم يرجع للعمق اللساني عند " فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) " في كتابه " محاضرات في اللسانيات العامة"، لما فيه من مبادئ أساسية أسهمت في وضوح مفهوم الخطاب، إلا أن تعاريفه اختلفت باختلاف حقول استعماله تبعًا للمنطلقات الأدبية واللسانية، ومن بينها نذكر: أنَّ الخطاب مرادف للكلام؛ أي الإنجاز الفعلي للغة، بمعنى " اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة، كما أنه يتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية (يقطين،١٩٩٧، ٢). وتبعًا لما اقترحه (هاريس) للخطاب فإنه: "مجموع قواعد تسلسل وتتابع الجمل المكونة للمقول، (الباردي، ٢٠٠٤،٩)، والخطاب هو "الوسيط اللساني في نقل مجموعة من الأحداث الواقعية والتخيلية التي تندرج ضمن الحكاية (

جينيت،٢٠٠٣، ٣٨ – ٣٩). وهو: " كل تلفظ يفترض متحدثًا ومستمعًا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال (الباردي، ٢٠٠٤، ١). وعرَّف (إميل بنفنيست) (Emile Benveniste) الخطاب بأنَّه : عبارة عن" لغة في حال الفعل أو بوصفه اللغة بين شركاء التواصل (الحميري، ٢٠٠٨،٩). وهو " قول يفترض متكلّمًا ومخاطبًا وتضمَّن رغبة الأول بالتأثير في الثاني بشكل من الأشكال. وهذا يشمل الخطاب الشفوي بكلّ أنواعه ومستوياته ومدوناته الخطية، ويشمل الخطاب الخطّي الذي يستعير وسائل الخطاب الشفوي وغاياته، كالرسائل والمذكرات والمسرحيات والمؤلفات التعليمية، أي كلّ خطاب يتوجّه به شخص إلى شخص آخر معبّرًا عن نفسه بضمير المتكلم" (زيتوني ، ٢٠٠١ ، ٨٨). والخطاب في المفهوم السردي هو القول الشفهي أو الخطّي الذي يخبر عن حدث أو سلسة من الأحداث... وهو وضع الحكاية في نصها لنقلها إلى القارئ، ولكنه يُبعده عن الحكاية، وهو مضمون النص" (زيتوني، ٢٠٠٢، ٨٩).

ثانيًا– مفهوم الخطاب الروائي

لما كان الخطاب يحتاج وضعية تواصلية بين طرفين أو أكثر، فالشأن نفسه في الخطاب الروائي، لكونه رسالة موجهة من مرسل إلى متلقي (معيكل، ٢٠١١، ٢٨١) ، هذا معناه أن عمق الخطاب الروائي في الأصل هو خطاب لغوي، يتجلى ذلك في تعدده اللغوي، وذلك حسب قول ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) : " يأخذ اتجاه الخطاب ضمن ملفوظات الآخرين ولغاتهم دلالة أدبية داخل أسلوب الرواية، فالتعدد الصوتي واللساني يدخلان في الرواية وينتظمان فيها ضمن نسق أدبي منسجم، وهنا يكمن التفرد الخاص للجنس الروائي (باختين، ١٩٨٧، ٦٨) "؛ ذلك أنَّ الخطاب الروائي يمكن

تحديده في لغة الراوي التي تعكس صورته وصورة الآخر، من خلال مشهد الواقع الاجتماعي وما يحتويه من أحداث ووقائع تصور الحياة في إطارها العام؛ لأنَّ الناثر الروائي لا يستأصل نوايا الآخرين من لغة أعماله المتعددة الأصوات، ولا يحطم المنظورات والعوالم الاجتماعية والإيديولوجية التي تكشف عن نفسها فيما وراء هذا التعدد الصوتي، إنّه يدخلها إلى عمله، باستخدام خطابات مسبقة بنوايا الآخرين الاجتماعية، مُرْغِما إياها على خدمة نواياه الجديدة (باختين، ١٩٨٧، ٦٨)؛ من هنا يتضح أنّ الخطاب الروائي يتألف من مجموعة من الرموز اللغوية صيغت بطريقة فنيّة لتؤثر في المتلقي، ويجسد الجمال والفن والتصوير في لغة موحية ومعبِّرة ورامزة، كما نؤكد أيضًا أنَّ الخطاب الروائي، جزء من الخطاب الحكائي أو السردي، حسب التمييز الذي أقره (جيرار جينيت) (Genette Gérard)، (جينيت، خطاب الحكاية،١٩٨٣، ٣٨). إلا أنَّ سعيد يقطين ميَّز بين الخطاب والحكي، مبينا أنَّ الخطاب هو الشائع؛ لأنَّه يؤدي إلى دراسة العلاقة بينه وبين الأحداث المروية، والعلاقة بين الخطاب وبين الحكي (يقطين، ١٩٩٧، ١٢). والخطاب هو أساس الرواية، وهو في" السردية نص الرواية. وفي " السردية هو نص الرواية وهو يتحدّد بمادته (الكلام أو الكتابة) وشكله جمل متلاحقة ذات ترتيب مقصود تعرض حالات ومواقف وأحداثًا، وهذا الغرض محكوم بوجه نظر الراوي وبسرعة السرد وبتعليقات المؤلف" (زيتوني، ٢٠٠٢، ٨٩).

وللخطاب الروائي مستويات عديدة في دوائر السرد الروائي، تتلون وتتنوع وفق رؤية الكاتب، منها خطاب السارد وخطاب الشخصية، والكاتب هو الذي يحدد نوع الخطاب في النص الروائي؛ لكنه محكوم برؤية النص وقضيته المحورية، وبيئته المكانية والزمانية، وعتباته النصية ودوائره السردية. وكل هذه الدراسات حول مفهوم الخطاب الروائي أدت إلى تطور المناهج النقدية في

تطور الإنتاج الأدبي من خلال النظر إلى الخطاب الروائي، باعتباره مادة سردية قابلة للتحليل والتفسير والتوضيح.

ثالثًا- مفهوم الخطاب التاريخي

إنَّ الحديث عن الخطاب التاريخ، هو الحديث عن الذاكرة الجمعية للشعوب وما صاحبها من أحداث على مر السنين، حيث تنعكس صورة هذا الخطاب في مخيلة المؤرخ الذي يسرد تفاصيله؛ تبعًا للأحداث الكبرى التي عرفها ذلك الزمن، " إلا أنَّ هذا الخطاب بات يتخذ رؤية دقيقة تحيط بجوانب التاريخ، تبعًا لتشعب مجالاته المتعددة ، والتي أصبحت تتطلب تضافر اختصاصات العلوم، سواء أكانت جغرافية أو فلسفية وأدبية أو أنثروبولوجية.. في قراءة الماضي وإعادة كتابته انطلاقًا من الحاضر واستشراف المستقبل، ليس من طرف المؤرخ ، وإنّما من طرف ذوي الاختصاص في هذه الحقول المعرفية أو غيرها، وفي مدى قدرتها على ملامسة الأوجه الخفية للتاريخ من زوايا ورؤى مختلفة، تجسد نمط الحياة الإنسانية من حيث العادات والأفكار، وكذا تقويم التاريخ بتصحيح أخطائه ومغالطاته بفهم التشكيلات الخطابية في أبعاد تجلياتها الفكرية والفلسفية والأدبية والدينية..(التريكي، ١٩٩١، ٣١٨). من هنا فإنَّ الخطاب التاريخي يسلط الضوء على الحقيقة التاريخية ومجرياتها، ويسردها بأسلوب تقريري ولغة مباشرة وتقريرية بعيدة عن الإيحاء والرمز والحدس، ويستلُّ معلوماته من الوقائع التاريخية الموثقة، والوثائق الموثوق بها، البعيدة عن الذاتية والشخصية والخيال المطلق ؛ لذا يتسم الخطاب التاريخي بالصدق والموضوعية والدقة والحرفية في نقل أحداث التاريخ، كما يربط النتائج بالمقدمات، فتأتي واضحة ودقيقة ولا يستخلصها القارئ من النصوص التاريخية نفسها.

رابعًا- مفهوم الرواية التاريخية

يفرض الحديث عن مفهوم الخطاب الروائي والتاريخي الوقوف على مفهوم الرواية التاريخية التي نُسجت مادتها من التاريخ في شكل سردي جديد خضع إلى التعديل والتغير والابتكار والتحوير، ويهتم بالفن والجمال والتصوير واللغة الموحية الرامزة ؛ لتجسد رؤية جديدة للواقع المعيش في كافة تشكيلاته واختلافاته وتصوراته.

وتُعدُّ الرواية التاريخية أحد أهم أنواع الرواية عامّة، نظراً لتعدد تعريفاتها عند النقاد العرب والأجانب، والتي تتفق جميعها على اعتماد التاريخ مادة أساسية للعمل الروائي؛ لأنَّ من أهم "مقومات الخطاب الروائي " أن يكون قابلاً للتجدد والاستمرار والتواصل عبر القرون، ولا يتم هذا إلا إذا كان الماضي حاضرًا فيها بقوة، وهذا الماضي هو تاريخ الأمة وذاكرتها المتوارثة عبر الأجيال، مع الاحتفاظ بخصوصية اللغة التي تستخدم في كلا النصين الروائي والتاريخي" (عبيد، صابر، البياتي، سوسن ، ٢٠١٥، ١٧٨) ، ويمكننا التمييز بين نوعين من التعريفات، يتمثل النوع الأول في التناول التقليدي للرواية التاريخية والذي يحرص على الأمانة في نقل الأحداث التاريخية وعدم تزييفها، أما النوع الثاني فيتمثل في التناول الحداثي والجديد للتاريخ، وهذا هو بيت قصيدنا في هذا التحليل، وذلك باستعمال الرواية للتاريخ كمادة خام، لا لنقلها أو إعادة صياغتها، خاصة أنَّ النص يتشكل من " مساحة خصوصية للواقع والتاريخ، ويمنع من المطابقة بين اللغة كنسق لتوصيل المعنى وبين التاريخ ككل مستقيم" (كريستين ، ١٩٩١،٧٥)، ولكن لتحقيق أهداف روائية لا تتحقق إلا بها، ولعل تعريف (بيوكن) (Byukon)أ قرب لتعريف الرواية التاريخية بمنظورها الجديد، إذ يقول:" هي كل رواية تحاول إعادة تركيب الحياة في فترة من فترات التاريخ، والتي يُعْمِل فيها الكاتب أدواته الفنية لإعادة إظهار هذه الفترة إظهاراً فنيًا بعيداً

عن سطوة الوثائقية (الشمالي، ٢٠٠٦، ١١٤). ويرى (جورج لوكاش) (György Lukacs) بأنَّ الرواية التاريخية نشأت في بداية القرن التاسع عشر، وهي " رواية حقيقية تجسد الحاضر ويتمثَّلها الحاضرون على أنها التاريخ السابق للذات، ولا بدَّ أن تنقل التاريخ بأمانة رغم بطلها الخيالي وحبكتها الفنية المتخيلة" (لوكاش، ١٩٣٧، ٢٠١٥ ، ٨٨)، وبظهورها هذا أسست لوعي جديد بالخطاب الروائي الحديث والمعاصر. وقد تميَّزت الرواية التاريخية بالتمهيد للحدث وتلخيص الأحداث المتلاحقة، وتسليط عدسة الرواية على البيئة، ووصف أدق التفاصيل فيها، وسرد حياة الشخصيات من البداية حتى النهاية، وتصوير البيئة الاجتماعية للشخصيات ؛ للكشف عن سماتها الفنية وملامحها الإنسانية العامة في ظروفها التاريخية ، وتفسير هذه الظروف التي شكّلت هذه الشخصيات، وانعكاسها على لذا فهي تسلط الضوء على سلوكها وأفكارها وانفعالاتها وهواجسها وتطلعاتها؛ . كل هذا جعل الرواية التاريخية تأخذ محطة في الأدب، عبر عدة مراحل وهي: مرحلة الرواية التاريخية الكلاسيكية، ثمّ مرحلة الرواية الرومانسية التاريخية، ثمَّ مرحلة الرواية التاريخية الواقعية، وأخيرا مرحلة الرواية التاريخية الجديدة.

صورة الخطاب الروائي بين الزمن الواقعي والتخيلي

إنَّ الإمكانيات المتتابعة وغير المحدودة للشكل الروائي، لا يحدها الزمن الواقعي، وإنما تمتد عبر الزمن التخيلي الذي ترجع أصداؤه إلى البعد النفسي والاجتماعي والأنثروبولوجي والجمالي .. وفق رؤية إبداعية، تترجم الزمن إلى رؤية فكرية داخل نسيج العالم المتخيل للسارد، عن طريق إعادة تشكيل جزئيات وقع الحياة عبر أزمنة ما كان الزمن الواقعي ليبوح بها ويميط اللثام عن خيوط أحداثها، لولا الإيقاع الداخلي للزمن الروائي الذي يسعى لكشف جدل العوالم المتناقضة بين الماضي والحاضر، والمادية والمثالية والعلم الدين، والفضيلة

والرذيلة، وصراع المجتمع والسلطة، وصراع الذات والآخر؛ ليشكل كل هذا، مرآة زمنية متنامية لشهادات ساخرة أصبح معها مستوى الإطار الزمني بكل تنوعاته وازدواجيته موضوع صراع طبقي وفكري، اتخذ معها الزمن التاريخي حالة ميكانيكية دائمة الأعطاب والتوقفات، لهذا جاء الروائي ليملأ الثغرات الزمنية بطابع تخيلي يستمد أصوله من ذاكرة المبدع وإلهامه الفني، حيث إنَّه يجعل الخطاب الروائي واقعيًا بعدما علاه زيف التاريخ، ويعرّف ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine):" إنَّ الرواية جنس أدبي غير مستقر وغير مكتمل وغير مغلق، يسعى بشكل جاد إلى تحطيم مُطلقية اللغة والتحرر من أحادية الرؤية بفتح أبواب الممكن أمام المبدع (باختين،١٩٧٣، ١٨٠).

إنَّ الخطاب الروائي شكل من أشكال التعبير الذي يبرز الرؤية الزمنية المتماسكة للعالم، بعد قيامه بمعالجة قضايا واقعية بطريقة إبداعية فنية؛ أي أن "محاكاة الواقع زمنيا يخضع لدلالة غير مباشرة، لكنها قابلة للإدراك (م. ريفاتير، ١٩٢٢، ٤٥). ذلك أنَّ لكل خطاب روائي نمطًا زمنيًا، يستمد أصالته من كيفية تعبير الروائي عن ذلك النمط في إيصاله للقارئ، تبعًا للخطية الزمنية في علاقتها بمضمون الخطاب وجوهره المترامي بين الزمن التخيلي والواقعي؛ الشيء الذي ينتج بنية شديدة التداخل، لكونها قائمة على انتقال القارئ خياليا من حاضره الكرونولوجي إلى ماض روائي كتبت في الرواية وترجمت إلى واقع متخيل يفصل بين حدث الكتابة وزمن القراءة، وفسحة التأويل الذي يختلف في أحايين كثيرة بين القارئ والروائي، مما يجعل الخطاب الروائي معلَّقًا بالظرفية التاريخية الواقعية التي تُعدّ منطلقًا للقارئ في فهم توجهات المسار الزمني للرواية بالتعامل مع الواقع وترجمته بواسطة أدوات تعبيرية تشكله وفق متخيل متميز من خلال تسجيل خباياه بطريقة فنية، هذه الطريقة التي يسعى من خلالها الروائي خلق عالم مفترض(متخيل) يوازي به عالم الواقع، إلا أنَّ صورة

الزمن الواقعي تتقدم بشكل خطي تتسلسل فيها الأحداث من الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل، أما الزمن التخييلي فإنّهُ يتسع ويتقلص؛ لأنَّه لا يشترك ماضيًا ولا حاضرًا ولا مستقبًلا، كما أنَّ له القدرة في التحكم في هذه الأزمنة تحت سلطة تغيير مجرى الأحداث، ويمكن تحديد صورة اشتغال الخطاب الروائي بين هذين الزمنين وفق **االترسيمة التالية التي تجسد تجليات الزمن الواقعي والتخييلي في الرواية** (بشلار، ١٩٣٦، ٦٨).

االترسيمة (١)

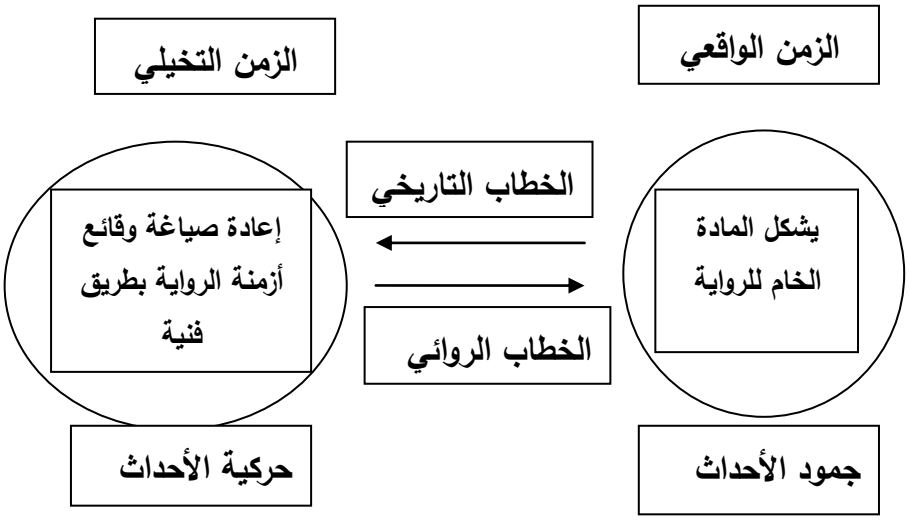

يتضح من شكل الترسيمة(١) العلاقة التلازمية بين الزمن الواقعي والتخييلي، إذ إنّ كلاً منهما يكمل الآخر، باعتبار الزمن الواقعي، هو المادة الخام التي ينتجها الخطاب التاريخي، إلا أنَّ هذه الأحداث تظل جامدة بحسب الروائي الذي يعيد تحريك أحداثها بصياغة جديدة تستجيب للمعطى الروائي ورؤية الروائي وذلك بتوظيف تقنيات فنية تمنح الوضعية الزمنية حلة تخيلية تترجم صورة الواقع إلى مرايا أكثر إيضاحًا مما كانت عليه الأحداث الماضية،

فتشع صورة الخطاب الروائي بشكله الجديد المستل من مرايا التاريخ، والذي يستشرف انعكاسات المستقبل.

مرايا التاريخ وأزمنة الرواية المنكسرة

يشكل التاريخ مادة فنيّة تعكس مرايا الواقع الإنساني، إلا أنَّ هذا الانعكاس تتحكم فيه الخصوصية السردية للمبدع في ترجمة الوقائع والأحداث الماضية داخل فضاء الرواية، وما تحمله هذه الأحداث من زمن شخصي، يمنح الروائي طابع البناء النصي؛ لفهم الواقع من منظور ذاتي يتوسل فيه خطية زمنية تنبني على عدة تقنيات من حذف واستباق واسترجاع للأحداث عبر الزمن الخطي التاريخي(Temps graphique historique)، وكل خطية من هذا النوع تبين أن " الزمن يمكن أن يكتسح الفضاء، وأن المبدعين الذين يمتلكون هذه الخطية الزمنية المنكسرة على تنوع الأحداث داخل فضاءات متعددة، يكون زمنهم الشخصي أثناء خطابهم الروائي ملتصقًا بالزمن الاجتماعي والنفسي القائمين على تصوير المشاهد بإضفاء لمسة تخيلية لشد انتباه القارئ لعمق الحدث المراد إيصاله، وهذا ما يمكنهم من استشعار المدة الزمنية التي ينتقلون عبرها صعوداً ونزولاً؛ لأنَّهم مندمجون كليا في الزمن الذي يملأونه بذواتهم عبر مسار خطية الزمن التاريخي (Filliollet, 1973, 121-122).

إنَّ ذكر الزمن الشخصي كما سبق، له ارتباط برؤية الروائي في اختزال الزمن التاريخي في أبعاد اجتماعية تُظهِرُها تجليات السرد أثناء الكتابة الروائية، خاصة إذا كان الأمر متعلقًا بسيرة ذاتية أو غيرية؛ ليتخذ الزمن في السرد خطية دائرية تَقطُّعِية داخل الفضاء النصي (Espace textuel)؛ ليصبح للقراءة النصية حيز كبير داخل الخطاب السردي بالمقارنة مع الأحداث التاريخية التي تُقلَّص من طرف المبدع شريطة الحفاظ على الخطية الزمنية

المتصلة بخيوط السرد، والمنتقلة عبر الزمن، وما يصاحبها من جوانب سياقية مرتبطة بالمكان واللحظة والهدف والموضوع وجنس الخطاب واللهجة المستخدمة، بالإضافة إلى معارف الشخصية المشاركة، ومدى تأثيرها وتأثرها بالخلفية الثقافية للمجتمع الذي يحدث فيه الخطاب؛ ولعل هذه الرؤية هي التي تخلق ذلك الانسجام بين الأزمنة بلا تصادم، هذا معناه أن الزمن الماضي ممتد في حاضرنا ومستشرف مستقبلنا ، وهذا ما بينه أمبرتو إيكو (Umberto Eco) أثناء دراسته للتراث السيميوطيقي، بقوله:" إن العمل على تطوير الفكر لا يعني رفض الماضي بالضرورة، وإنما نعيد فحصه ليس بهدف معرفة ما قيل فعلا، ولكن بهدف معرفة ما كان يمكن أن يقال، أو على الأقل ما يمكننا قوله الآن بناء على ما قيل سلفا" (إيكو، ، ١٣).

هذا معناه أنَّ الخطاب الروائي يمثل مرآة تعكس الذات الساردة في تعاملها مع الأحداث، وفي كيفية إيصال هذا النص المثخن بالدلالات والرموز التي كسرتها عوامل الزمن لتُصيِّر منها شقوقا تبوح عن واقع اجتماعي أبان السرد عيوبه التي أخفاها عامل الزمن، بفعل النبش في الماضي عبر مستويات العالم النفسي للشخوص وكذا فضاءات الأمكنة، لما لها من دور أساس في توجيه بوصلة السرد عبر خطية الأزمنة المنكسرة التي يتفرع منها زمن الخطاب وزمن النص في علاقتهما بالزمن النفسي والواقعي. " إنَّ الزمن في الرواية يجمع بين الحقيقي والوهمي، إلا أنَّ الحدود الفاصلة بينهما تتلاشى وتصير خيطا لا مرئيا شفافا" (موكارفسكي ، ١٩٣٤، ٢٨٦) ، مما يجعل الكتابة الروائية تستوعب الزمن الأدبي وهذا الزمن يستوعب الواقع الفني، باعتباره معياراً حاكمًا لمنطقية الصور الروائية التي تمر عبر شريط الزمن الذي يؤثر في زوايا نظر القارئ أو المستقبل لأشعة انعكاس الرواية على ضوء التاريخ.

الخطاب الروائي بين الواقع والتخييل

إنَّ اللغة الأدبية لا تستعير مكونات الواقع الخارجي، وإنَّما تعبّر بوعي عن معان ومدلولات ونظم فكرية شاملة، كما تقوم بخلق عوالم جديدة من تعالقات الدوال اللغوية، حيث يصبح الخطاب الروائي محط افتحاص أدبي وفني لكشف العوالم الجديدة التي جاءت سندا لتفصيل الواقع وتقريبه للقارئ تبعًا " للبنية الأولية للتعبير بالعلامات" حسب (ليونز)(Lyons) (Lyons) (1981,108, ، ذلك أنَّ تلك العوالم لا توجد إلا في مخيال الروائي الذي يسعى إلى تنظيمها حتى تأخذ طابعًا فنيًا يجعل القارئ قادراً على التعمق في ثنايا الخطاب الروائي، فما تواضَعْنا عليه في هذا العالم عبر العصور لا ينطبق على عالم آخر رهين بقراءتنا، هذا ما يدفعنا لعدة تأملات بين عالم الواقع وعالم النص، وما يجمع بينهما من مرتكزات قائمة على بعد الرؤى والقوانين التأويلية التي تتحكم في الخطاب السردي بحمولاته الاجتماعية والأنثربولوجية والأدبية والنفسية في صياغة العملية الإبداعية في أبعادها التخييلية؛ هذا ما يمكن أن نبينه كنموذج أول دال في مشهد من رواية " المخطوفون" الصادرة في دمشق عام (١٩٩١) للكاتب عبد الكريم ناصف، والذي يمكننا اعتباره أدرى الناس بقواعد عوالم اللعبة الفنية الروائية، في أبعد مراميها التخييلية؛ ذلك أنَّ رواية "المخطوفون" تُعدُّ من الروايات التاريخية التوثيقية التي تعتمد في حديثها على لغة الرمز الشفاف الذي يتناول القضية الفلسطينية في أبعد تجلياتها الفنية المستلة من روافد خيال المؤلف ودربته في تقييد الواقع ومحاصرته، باعتماد مبدأ التدرج المنهجي أثناء سرد الأحداث وتفصيلها بطريقة فنية؛ إذ إنَّ الرواية تتحدث عن سفينة كبيرة، بل بلاد بأسرها أبحرت من شاطئها في اتجاه شاطئ آخر، "هذا الشاطئ الذي لا نفهم دلالات معانيه إلا من خلال أقوال ركاب السفينة، إنَّه شاطئ القانون والنظام

أو شاطئ الحق والحرية، هذا الذي شرب الركاب نخبه ذات مرة، ويتوقون مرة أخرى لكسر أمواج الظلم العاتية التي تعترض سبيل سفينتهم حتى يرسوا جميعهم بسلام فوق أرض الحق والمساواة والحرية" (عبد الكريم، ١٩٩١، ١٩).

ولعل هذه الصياغة السردية تبوح في ثناياها عن عمق بلاغة التأويل القائم على التخييل في التعاطي الفني للخطاب الروائي، إذ يكشف الكاتب عن الشخصيات في الرواية عبر حركة دوائر السرد المتلاحقة منذ الفصل الأول، فـ "غالي بابا" هو القبطان الجميل والشجاع والذكي والآمر والناهي، وهو بطل السفينة والرواية معا حمل فكرة الرواية على كتفيه وسار حتى النهاية. وكذلك مساعد القبطان "رستم الغطاس" وهو شخصية رسمها الكاتب بدقة وفنية احترافية عالية، يملك إرادة فولاذية، إذ لا يعرف الخضوع والمصالحة مع مختطفي السفينة رغم صَلْبهم له على سطح السفينة، عندما طلبوا منه الاعتراف بأنهم قادة السفينة وأصحابها الحقيقيون.

تكشف المشاهد السردية أنَّ القبطان ينتقل فيمر على مضيفته "دارية" فيلتقي عندها الشاعر" هايل أبو سنام" والمحامية "رشيقة الباز" التي ستصبح فيما بعد محظية لزعيم المختطفين "بن جدعون" وغيرهم من الشخصيات الرئيسة والثانوية؛ إلا أنَّ الهدف من رواية المخطوفون، هو تعرية الواقع باعتماد شد زمام الخيال في تصوير مشهد صراع الحق مع الباطل على ظهر الحياة بمشاكلها العاتية، أو على ظهر بلاد يسود فيها الفجور؛ ليحجب ضوء الحق، هذا ما يدفعنا **للقول:** إنَّ رواية " المخطوفون" تجسيد للواقع العربي الذي ساد فيه التناقض وضعف القيادة الحكيمة، التي هوت وعصفت بالعديد من الشعوب العربية نحو أيادي القتل والتجويع والاختطاف، إذ أنَّ الكاتب استطاع تطويق الواقع ومحاصرته باعتماد الطابع التخييلي الذي يمكننا

اعتباره أداة شكلت رؤية جمالية فنية للرواية، ومنحت الخطاب بعداً إنسانيًا متمزقًا بين قوى الخير والشر، فعوضًا عن تَخْتَطِفَ الأمواج السفينة غرقا، اختطفتها الأمواج البشرية التي تكالبت على ظهرها قتلا وتنكيلا

والنموذج الثاني يتجسد في مشهد من رواية " المصابيح الزرق" الصادرة (١٩٥٤) للكاتب السوري حنا مينا بعد استقلال سورية ورحيل الاستعمار الفرنسي، الذي شكَّل تفاصيل روايته من التاريخ الحاضر بتمكنه من فهم لعبة السرد والكتابة الفنية، فالرواية تدور أحداثها في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتصور عبر حركة دوائر السرد المتلاحقة عن أثر الحرب العالمية الثانية على المجتمع السوري المتمثل في مدينة اللاذقية، وتجسيد مفهوم العدالة والمساواة الاجتماعية بين الناس وبالتحديد في الأحياء الفقيرة، وتجليات الصراع الطبقي والتفاوت الاقتصادي في المدينة بين الفقراء والمحتكرين والأغنياء والمستعمرين الفرنسيين، والذي فرضته سياسة السلطة الاستعمارية المهيمنة، فخلق هذا التفاوت في ظل الاحتلال صراعًا مع المستعمر، والثورة ضد قواته المحتلة، فأيقظ الشعور الوطني والقومي، ونشر قضايا جديدة بين، من مثل الحرية والعدالة والمساواة والتحرر، والذين حملوا على عاتقهم وحدهم ثورة الكفاح والتحرر من المستعمر، دون الأغنياء الذين تحالفوا مع المستعمر لحماية مصالحهم، وهي رؤية جديدة يجسدها الكاتب في روايته من خلال بطل الرواية الشاب (فارس) ابن الحي الفقير الذي يعاصر مرحلة تاريخية تمثلت في الحرب العالمية الثانية، والاستعمار الفرنسي على سورية، فيحمل على كتفيه فكرة الرواية الرئيسية ورؤيتها المحورية ويسير فيها حتى النهاية. وقد شكل الكاتب شخصية فارس عبر أحداث الرواية ومشاهد السرد المتلاحقة، فتحتل الشخصية حيزًا واسعًا في الرواية، ؛ لتعبر عن ظهور فكر ووعي جديد، فشخصية فارس ابن الأسرة الفقيرة الذي يعاني من الفقر

والبطالة، يناضل من أجل الحرية ولقمة العيش ، فيمثل نموذجًا لظهور الفكر الجديد والوعي السياسي والاجتماعي عند الجيل الجديد الواعي بمصير الأمة. يقول السارد: " لم يكن فارس في بدء الحرب العالمية الثانية شيئاً يذكر كان يافعًا في السادسة من العمر"(مينا ، ١٩٥٤، ٢٠). فهذا السرد بضمير الغائب يكشف عن تطور الوعي الفكري والخبرة وحرية الرأي لدى فئة المجتمع، المتمثل بشخصية فارس الذي تحول إلى مناضل نال احترام الجميع بعد سجن المستعمر له؛ ليجسد في النهاية مرحلة تاريخية مريرة استطاع الكاتب إعادة صياغتها بشكل روائي جديد قائم على الانتقاء والابتكار والاختيار والتحوير والتعديل من التاريخ الذي شكَّل المادة الرئيسة للرواية.

وقد تمكّن الكاتب من تصوير الواقع في مجتمع مدينة اللاذقية الذي ينتمي إليه بتوظيفه عناصر سردية كالشخصيات والأحداث وأساليب السرد والحوارات المتلاحقة والوصف التفصيلي واللغة التي تمزج بين التقرير والتصوير؛ ليكشف التغيرات التي حدثت والمتجسدة بوعي جديد وفكر جديد، استطاع الثورة على الاضطهاد والظلم والاستبداد التي حصرهم في خطين متوازنين، الطبقة المحتكرة وطبقة المستعمر، ليجسد في النهاية رؤية الرواية المتخيلة بغية الوصول إلى الرؤية الفلسفية الجمالية فيها.

إنَّ الخطاب الروائي استمد من كنه التخييل طاقته التعبيرية، فما كان للواقع أن يمده إياها، ولعل الأمر يعود إلى خصوبة التأمل والتأويل اللَّذين فرضهما الطابع التخيلي للقراءة، بدل أحادية الرؤية الواقعية التي خلقت اجتفافًا في المقامات التواصلية، "هذا معناه أنَّ القدرة التخييلية شكَّلت ما يعرف بالمسافة الجمالية للخطاب الروائي، والتي كرست تقليداً فنيًا معروفًا حافظ على الإرث الجمالي انطلاقًا مما اكتسبه الجنس الأدبي في مساره التاريخي، ومن هنا نكون أمام تلق أدبي سردي رافقه شعور يسميه (رولان

بارت) (Roland Barthes) بلذة النص (شرفي،٢٠٠٦، ١٨٥). أي أنَّ الطابع التخييلي هو عنصر محوري في تشكيل النص الروائي يسهم في إيصال حقيقية الواقع عبر عنصر التأويل، كما أنَّ واقع الرواية يتخذ عدة تمظهرات مختلفة يمكن إيضاحها على الشكل التالي(الضبع، ٢٠٠٨، ١٠٩):

١. الواقع يتحرك نحو الخطاب النصي؛ لاستيعاب دلالته، وبدونها يكون مجرد خيال؛ ذلك أنَّ أشخاص النص الروائي وأحداثه يستمدان معيارية منطقهما من المخزون المعرفي المستقر في ذهن المتلقي عن الواقع. ومن هذا التوصيف يقف المتلقي من شخوص الرواية إما:
   - بإسناد ملامح الشخصية الروائية على شخصية لها حضورها الواقعي بالنسبة إليه.
   - أو باجتهاد ربط ملامح مغايرة، لكنها تخضع للملامح البشرية خارج النص.
٢. الواقع تقنية كتابة وقناع فني، وموقف فكري يجسد رؤية خاصة لصاحب العمل الأدبي، إلا أنَّه يبقى جامدًا إن لم يحركه الروائي عبر الأزمنة والأمكنة والأحداث.
٣. الواقع لا يكتفي بطرح ثيمات ذات صيغة اجتماعية تتخلل معنى النص، إنَّما يتعدى ذلك ليشمل كل مشكلات النص الروائي، ابتداء من أول كلمة في الخطاب الروائي إلى آخر كلمة.

الكتابة التاريخية والذات الروائية العربية

إنَّ المتمعن في عمق الكتابة التاريخية يدرك بحق أنَّها ترجع إلى محاولة الذات الهروب من الواقع العربي المهزوم والضعيف سياسيًا وحضاريًا، بسبب سيطرة الاحتلال الأجنبي على البلاد العربية في بداية القرن العشرين واستغلال شعوبها، وصعود الروح القومية والرغبة في الاستقلال، إضافة إلى الهزائم المتتالية التي مُنيت فيها الأمة العربية بدءا بنكبة فلسطين عام (١٩٤٨) ، وهزيمة حزيران (١٩٦٧)، وفقدان الأفق والأمل في الغد المشرق، كل هذا دعا إلى بحث الذات العربية عن القوة والعظمة والمجد بين ثنايا التاريخ العربي الإسلامي، وإحيائها من جديد برفض الواقع الأليم والتطلع إلى حاضر ومستقبل يعيد للعروبة قوتها، ويستنهض هممها، من خلال استيعاب المتغيرات التي حدثت، وانتفاض الذات بالدعوة إلى الثورة والتغيير، "هذا ما جعل الروائي أثناء كتابته يجد نفسه مضطرًا إلى مخاطبة الحاضر والإطلالة عليه من خلال نافذة الماضي، وهنا يجد في التاريخ مادة خصبة للكتابة ومجالاً رحبًا للتعبير عن النفس عن طريق شحذ الطاقة من الرواية التاريخية (قاسم ،٢٠٠٩ ، ٢٠١٠).

أنَّ النص الروائي ظلَّ قابل للتجدد في إطار قدرة الرواية على امتصاصه، وتحويله إلى لغة مثخنة بأحداث ووقائع الآخرين، وهي ميزة الناثر عمومًا والناثر الروائي خاصة، وهذا ما يؤكده سعيد يقطين بقوله:" إنَّ النص الروائي يستوعب بنيات نصية عديدة ومختلفة زمنيًا وخطابيًا ونوعيًا ثمَّ ينتجها من جديد، من خلال منحه إياها دلالة وأبعاداً مختلفة عن التي تكتسبها في سياقها. وهو بذلك يقدمها كعناصر بنيوية تساهم في عملية بنائه وتكوينه" (يقطين، ٢٠٠١، ١٢٨)، هذا يعني أنَّ الرواية خلخلت عمق الكتابة التاريخية، بانطلاقها من اللحظة النهائية التي تمتح من عمق الماضي لتبدأ سيرورة

خطية جديدة تبوح بما لم تبح به الكتابة التاريخية من وقائع وأحداث؛ لأنَّ الأساس الذي تريده الذات الروائية هو إعادة كتابة التاريخ بشكل مغاير للتاريخ الرسمي العقيم(حميش ،١٩٩٨، ٨٣). لكن هذا لا يعني أنَّ التاريخ ليس مادة أو مرجعًا أساسيًا به تبنى ركائز الرواية، وهنا لا نقصد بالتاريخ ما كتبه المؤرخون، وإنَّما التاريخ الذي نظر إليه الروائيون من زاوية لم يعر لها المؤرخ اهتمامًا واضحًا، إنَّها الزاوية التي تجمع بين الرؤية الأدبية والواقع الاجتماعي في صلب التاريخ، من خلال إعادة أنسنة الحدث، وبعث عوالمه الميتة بنفس سردي يميط اللثام عن الرؤى التي انزاح عنها المؤرخ، والتي لم يستطع رؤيتها بدون منظار الأدب (العروي، ١٩٨٨، ٤٥).

أما الذات الروائية العربية، فهي تتجسد بالقدرة النفسية للروائي في بلورة معطيات الواقع من زاوية تنمّ عن إحساسه وشعوره تجاه فهم فلسفة الحياة المتوارية بين سطور التاريخ وترجمتها إلى أحداث ووقائع، حيث تتوازى الحركة الكرنولوجية للزمن مع اللحظة السيكولوجية، مما يجعل الكتابة التاريخية تأخذ انعطافًا معنويًا أكثر مما هو مادي، حيث يتباطأ الزمن لتشويق المتلقي عن طريق صياغة أحداث التاريخ بطريقة تخدم ذهنية القارئ من خلال شد ذهنه إلى التفاصيل الدقيقة التي تلامس إحساسه بل تجعله عنصرًا مشاركًا في الأحداث؛ ذلك أنَّ " إحساس الروائي بمرور الزمن أثناء الكتابة، يتأثر دون شك بدرجة استغراقه في العمل، وما يرافق ذلك من وقفات تصاحبها مشاعر عاطفية تتغلغل عبر ثنايا السرد إلى مخيلة القارئ، وربما تجعله يستلذ التاريخ على حساب أحداث الرواية" (مندلاو ،١٩٩٧، ١٣٧).

إنَّ تفاعل الروائي مع التاريخ وإحساسه به، بل وتعاطفه مع أحداثه وشخصياته عبر زمن الكتابة مكّنه من خلق زمن نفسي يُلبس الشخوص الروائية الفرح والحزن والمعاناة ؛ لأنه من نسج خيال الروائي بهدف الإبلاغ

عن فكرة جوهرية لها وقع على " تيار حياتنا الداخلية (بحراوي، ٢٠٠٩، ١١٤) ، أي ما يعانيه من مكبوتات ذاتية؛ لأنَّه يعبّر من عمق مستويات الحياة النفسانية، إما عن طريق الحوار الداخلي(المونولوج)، أو الحوار الخارجي أثناء التفاعل مع الشخصيات تبعًا للمقام التخاطبي القائم على كرونولوجيا الأحداث، وترتيبها وفق التسلسل الزمني الذي يربط الحقيقة التاريخية بالأثر النفسي، وبالتالي انزياح الروائي إلى كشف عوالم ذاتية للشخصيات في تعاملها مع مجموعة من الحقائق التاريخية التي عرتَّها الكتابة الروائية، من مثل ما نجده في روايات الروائي المصري نجيب محفوظ التي اتخذت من التاريخ الفرعوني مادة لها، و " ثلاثية غرناطة" للروائية المصرية رضوى عاشور التي شكَّلت مادتها الرواية من تاريخ المورسيكين في الأندلس، وروايات الروائي الفلسطيني إبراهيم نصرالله الذي استقى مادة رواياته من المأساة الفلسطينية، وروايات الروائي العراقي نجم والي الذي شكَّل مادته من تاريخ العراق، وغيرهم من الكتَّاب الذين وجدوا في التاريخ مادة غنية لتشكيل رواياتهم. وهذا كله يجسد أهمية التاريخ في صناعة النص الروائي بحلة جديدة وبما يتلاءم وفكرة النص الروائي وماهيته.

خـاتمـة

تناول هذا البحث صورة الخطاب الروائي بين مرايا التاريخ وانعكاسات المستقبل، ووقف على تجليات الخطاب الروائي والتاريخي، وصورة الخطاب الروائي بين الزمن الواقعي والتخيلي، ومرايا التاريخ وأزمنة الرواية المنكسرة، والخطاب الروائي بين الواقع التخييل، ووضِّح الكتابة التاريخية وقدرة الذات الروائية العربية؛ ليبين أثر انعكاس التاريخ في الخطاب الروائي عبر الزمن.

وخلص البحث إلى أنّ صورة الخطاب الروائي، صورة متعددة المرايا بانعكاساتها القزحية التي تملأ فضاء الرواية بتلوينات ناتجة عن الإدراك

الحسي للواقع تارة، وعن الإدراك المعنوي للمتخيل تارة أخرى، كل هذا وذاك يجعلنا أمام رؤية ممتدة للبحث عن العوالم الخفية داخل أزمنة الرواية؛ لاستنطاق التاريخ عبر تشكلات الأحداث الفنية المنبعثة من رماد مادته التي سُحقت في الماضي؛ لتتشخصن في الحاضر من جديد، وتتبلور بشكل آخر في الخطاب الروائي؛ ليثير بعداً تواصليًا يستهوي الدارسين بشهية البحث عن الخطاب المتواري بين أوراق النقد وكتب التاريخ، بغية التطلع والبحث عن المزيد من الرؤى والتصورات والتطلعات التي يمكن أن تنتجها الذات الروائية.

يشكّل التاريخ مرجعًا أساسيًا في تشكيل الخطاب الروائي وفق معطياته الجديدة، إذ يتكئ عليه الروائي في بناء مادته الرئيسة، من زاوية تجمع بين رؤية الروائي والواقع الاجتماعي في المتن التاريخي، في إعادة صياغة التاريخ بشكل أدبي جديد برؤيته وعناصره الفنية، التي بعثت عوالم التاريخ الميتة بنفس سردي يجسد رؤى عديدة انزاح عنها المؤرخ، ولم يستطع رؤيتها بدون منظار الأدب، بما يتلاءم مع الواقع المعيش ومرايا التاريخ، وانعكاسات المستقبل.

إنَّ هذا العمل يُعدُّ خلخلة بسيطة لبعض القضايا الكبرى التي تحتاج إلى مزيد من التنقيب في الذاكرة التراثية المتوارية داخل ثنايا الخطاب التاريخي، بتشعباته الكبرى التي تحفز على ركوب مغامرة البحث والتقصي؛ لاستنطاق كنه تجليات الجمال الفني الذي لم تبح به الرواية بعد، رغم ما قيل في السابق والحاضر. كل هذا يدفعنا إلى مساءلة الحقول المعرفية القائمة على هوامش الكتابة التاريخية عن الأشياء اللاتاريخية لإدراجها ضمن الكتابة الإبداعية؛ لفهم ممكنات المعرفة التي تستمد روح واقعها من الرواية التاريخية التخييلية.

المصادر والمراجع

أولاً – المراجع باللغة العربية

١. إيكو، أمبرتو، (١٩٨٠)، **السيميائية وفلسفة اللغة،** ترجمة أحمد الصمعي، (٢٠٠٥)، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت ، ٢٠٠٥، ص١٣.

٢. باختين، ميخائيل، (١٩٨٧)، **الخطاب الروائي** ، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١.

٣. باختين، ميخائيل، (١٩٧٣)، **شعرية دوستويفسكي** ، ترجمة جميل نصيف التكريني،(١٩٨٦)، دار توبقال للنشر، ط ٦، الدّار البيضاء.

٤. الباردي، محمد، (٢٠٠٤)، **إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة** ، مركز النشر الجامعي، تونس.

٥. بحراوي ، حسن، (٢٠٠٩)، **بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصيات)** المركز الثقافي العربي، ط٢، الدار البيضاء، المغرب.

٦. بحري، محمد الأمين، (٢٠١٧)، تمثّل التاريخ في الرواية الجزائرية، **المجلة الثقافية الجزائرية**، الجزائر، https://thakafamag.com

٧. بشلار ، غاستون، (١٩٣٦) ، **جدلية الزمن** ، ترجمة: خليل أحمد خليل، (١٩٩٢)، المؤسسة الجامعية للدراسات النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢.

٨. التريكي ، فتحي ، (١٩٩١) ، الروح التاريخية في الحضارة العربية و الإسلامية، ط١، الجامعة التونسية.

٩. جان ، موكارفسكي ، (١٩٣٤)، **الفن عبارة عن حقيقة سيميوطيقية"**، ترجمة: سيزا قاسم، مدخل إلى السيميوطيقا، (١٩٨٦)، ج٢، دار إلياس العصرية، مصر.

١٠.جيرار ، جينيت ، (١٩٨٣)، **خطاب الحكاية** ، ترجمة: محمد معتصم وآخرين، (٢٠٠٣)، ط٣، منشورات الاختلاف، الجزائر.

١١. الحميري ، عبد الواسع، (٢٠٠٨)، **ما الخطاب؟ وكيف نحلله؟** ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، بيروت .

١٢. حميش، بنسالم ، (١٩٩٨)، **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، دار الطليعة، بيروت.

١٣. دراج، فيصل ، (٢٠٠٢)، **الرواية وتأويل التاريخ نظرية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء.

١٤. زيتوني، لطيف، (٢٠٠٢) ، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، ط١، مكتبة لبنان ناشرون ، دار النهار للنشر، لبنان.

١٥. شرفي، عبد الكريم، (٢٠٠٦)، **من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة** ، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر.

١٦. الشمالي ، نضال ، (٢٠٠٦)، **الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية)**، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط١.

١٧. الضبع ، مصطفى، (٢٠٠٨)، **الواقع وأقنعته في الرواية العربية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

١٨. عبيد، صابر، البياتي، سوسن، (٢٠١٥)، **المتخيّل والروائي سلطة المرجع وانفتاح الرؤيا**، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، أربد، الأردن، وجدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

١٩. العروي ، عبد الله ،(١٩٨٨)، **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢.
٢٠. عصفور، جابر، (٢٠٠٥)، الرواية التاريخية وروايات نجيب محفوظ ، **مجلة العربي** ، ع٥٥٥ ، الكويت.
٢١. عودة، سامح، (٢٠١٧)،الرواية التاريخية أداة لاصطياد التفاصيل المنسيّة، الجزيرة ميدان، https://midan.aljazeera.net
٢٢. قاسم، عبده قاسم، (٢٠٠٩)، **الرواية التاريخية العربية زمن الازدهار** ، موقع كتاب العربي الصغير، ملحق ربع سنوي لمجلة العربي الكويتية، ع ٧٧، يوليو.
٢٣. القاضي، محمد (١٩٩٨) ، الرواية والتاريخ : طريقتان في كتابة التاريخ روائيًا ، **مجلة فصول** ، عدد خصوصية الرواية ج ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
٢٤. ليونز، جون، (١٩٨١) ، مدخل اللغة واللسانيات، ترجمة: حمزة بن قبلان بن أحمد المزيني، ١٤٠٧هـ ، **مجلة كلية الآداب**، ع ١، مجلد ١٤، جامعة الملك سعود، الرياض.
٢٥. لوكاش، جورج (١٩٣٧): **الرواية التاريخية**، ترجمة: صالح جواد كاظم، (١٩٧٨)، ط١، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، العراق، بالتعاون مع دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
٢٦. م . ريفاتير : الوهم المرجعي (١٩٩٢)، في كتاب الأدب والواقع لمجموعة من الباحثين، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي، ط ٦، مراكش.

٢٧. معيكل، أسماء أحمد، (٢٠١١)، **الأصالة والتغريب في الرواية العربية، روايات حيدر حيدر أنموذجا، دراسة تطبيقية**، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد، الأردن.

٢٨. مندلاو، أ.أ. ، (١٩٩٧)، **الزمن والرواية**، ترجمة: بكر عباس، مراجعة: إحسان عباس، دار صادر، ط١، بيروت.

٢٩. مينا، حنا: (١٩٥٤)، **المصابيح الزرق**، دار الآداب، ط١ ، بيروت، لبنان،

٣٠. ناصف عبد الكريم، (١٩٩١)، **المخطوفون** ، دار حطين للدراسات والترجمة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٩١.

٣١. نصار، كريستين ، (١٩٩١)، **الأنسان والتاريخ – أثر التاريخ وتأثره بسيكولوجية الفرد**، منشورات جروس برس، طرابلس، لينان .

٣٢. يقطين، سعيد، (٢٠٠١)، **انفتاح النص الروائي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

٣٣. يقطين ، سعيد ،(١٩٩٧)، **تحليل الخطاب الروائي** ، ط٣ ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء .

ثانياً- المراجع الأجنبية

1. Delas,D et Filliollet,J(1973) '' **l'inguistique et poétique''**, Larousse,Paris,Pp 121-122.